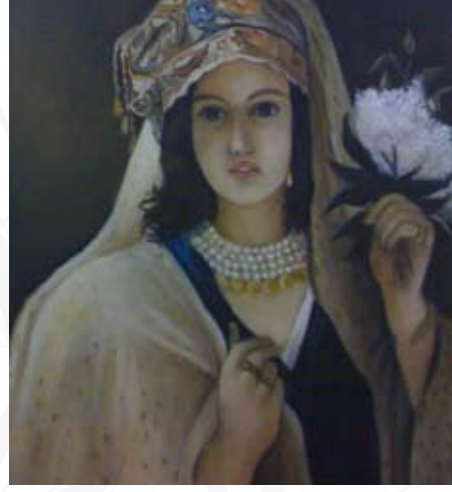


كانت نعم الرفيقة المثابرة، شجعت زوجها وأيدته وبقيت إلى جانبه حتى في أسره عدة أشهر وهي تبث له رسائل الأمل والتفاؤل، وحين خرج واسترد عرش مصر قاسمته المجد والسلطة

حاكمة عربية الملكة شجرة الدر



كانت خلف كل إنجاز عظيم، وحين جهز الملك لويس التاسع حملته إلى مصر عام ١٢٤٩م كان المرض قد بلغ أشده على زوجها، وكان في أواخر أيامه، فأقسمت أمامه أن الصليبيين سيقتلون في حملتهم، وحين توفي، قررت إخفاء خبر وفاته كي لا يشعر الجيش بالضعف، وكي لا تقع البلبلّة في صفوف المقاتلين.

وضعت خطة حربية مدروسة مع من كانت تأتمنهم وأدارت الحرب بمهارة، وأشرفت على تنفيذها، وراقبت سير المعركة، حتى أنها كانت تشارك الأهالي في المقاومة، وانتهت بنصر المماليك على الإفرنج، وبدأت عهداً زاهياً في مصر، فابتعدت عن الظلم والاستبداد، وأنعمت على الفقراء، وكانت متمكنة من إدارة شؤون البلاد بالشورى والعدل، فكان العهد القصير الذي حكمت به فترة نبوغ الشعر والأدب والفن والسلام. وأمّرت تلك الفترة بتسيير المحمل من مصر إلى الحجاز بمؤن من الطعام والمال وجيش كبير لحماية حجاج بيت الله الحرام، وكانت الأحكام والقوانين تصدر باسمها، كما كانت النقود منقوشة باسمها، وعلى الرغم مما حققته من إنجاز فكان من الضروري أن تعترف بها الخلافة العباسية في بغداد، وحين كاتبت المستعصم بالله تطلب منه شرعية الاعتراف بها فما كان منه إلا أن رفض منحها هذه الشرعية، كونها امرأة فخذلها مجتمع الذكور بنظرته القاصرة إلى المرأة وقال «ألم تجدوا في مصر رجالاً تولونه عليكم غير هذه الراقصة الغانية؟» متجاهلاً بذلك إنجازاتها وذكاءها وقدرتها على إدارة البلاد ونجاحها في خوض غمار الحرب وطرده الإفرنج من البلاد. ولكي تقطع الأمر على العباسيين وتحفظ لنفسها بهاء السلطة تزوجت من الأمير عز الدين أيبك لكي لا تفقد البريق، ولتوقف اعتراض العباسيين، ولم تكن يوماً تتوقع منه الخذلان، فكانت مفاجأة لها حين سمعت أن زوجها يهم بالزواج من امرأة أخرى، فسألت علاقتها بزوجها، وامتلات غضباً مدمراً وعاشت في قلبها غيرة النساء، وألمها كبرياءها وكرامتها حين علمت أنه يهين قصر القلعة للزوجة الجديدة، وتأمّرت عليه لقتله على يد غلمانها، وحين أعلنت خبر وفاته لم يكن التصديق من نصيبها ووجه لها اتهام القتل، فلم تنج من فعلتها، وفرض عليها السجن الانفرادي، حتى أصدر أمراً لجواريتها بقتلها.

«شجرة الدر» من أولئك النساء في تراثنا العربي المجيد ممن حاولن الخروج من دائرة الحريم إلى الحياة العامة، ومازال التاريخ يغيبن، وهناك محاولات لطمس صورتهم والإنكار عليهن، فمن خرجن سواء كن من الأسر الحاكمة أو السلاطين أو حتى من الجوارى لم يكتبهن التاريخ إلا من خلال سلطة وقوامة الرجل، و«شجرة الدر» ربما اضطهدتها الرجل وظلمها عبر التاريخ إلا أنها أعطت النساء نموذجاً للمرأة المتمكنة من قدراتها والمعتزة بذكائها والمتصالحة مع أنوثتها في زمن كانت فيه النساء والرجال يتداولون بالمال في سوق العبيد.

وتبقى قصة هذه الملكة الفريدة التي شهدت انتهاء دولة وقيام دولة أخرى «قصة متفردة، أحبتها النساء حتى التماهي والاندماج الكلي بشخصيتها بما تملكه من متناقضات، من امرأة عادية تمشي في الأسواق إلى ملكة تمسك بالصولجان وتحكم البلاد والعباد.

